توظيفُ القَصَص القرآنيِّ في علمِ الاجتماعِ
عند المفسرين
(تفسير المنار أنموذجًا)

إعداد: الأُستاذ المساعد
شاكر محمود حسين الأعظميّ
كلية الإمام الأعظم(رحمه الله) الجامعة

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على النَّبيِّ محمدٍﷺ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.أما بعد. فقد قال سبحانه وتعالى لنبيّهﷺ: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٦]؛ إنّ إعمال العقل في فهم تاريخ الأُمم أمرٌ لابُدَّ منه، ولمّا كان في سوق القصص القرآني إخبار عن تاريخ الأُمم الغابرة وأحوالها، مُضمّنًا سنن الله في الفرد والجماعات، لذلك جاء أمر الله لنبيّهﷺ بقصِّ خبرهم رجاء أن نتدبر أحوالهم فنعتبر؛ إذ في ماضي الأُمم مرآة ننظر فيها لِنفقه واقعنا، ولِنصلح صورتنا ولنرسم طريق مستقبلنا، على وفق قانون ثابت قضى به سبحانه وتعالى.ولقد جرت عادة مؤلفي علم التاريخ على تدوينه من دون فقه تبدل الأحوال في الأُمم من قوّة وسلطان تنال به العزّ والسعادة والرفاهية، أو من ضعف وقهر فتكسب الذلّ والشقاء وضنك العيش، كلّ ذلك بموجب سنن ثابتة غفل عنها الكثيرون، إلّا أنّ بعضًا من أولي الألباب فقهوا تلك الأحوال، فكان من هؤلاء ابن خلدون، الذي هو أوّل مَن أفرد في مؤلفه(المقدمة) علمًا يبحث عن أصول العمران وقواعد الاجتماع، وسنن التاريخ في الخلافة على الأرض. ومعلوم أنّ في القصص القرآني الكثير من سنن علم الاجتماع والعمران، إلّا أنّ أكثر المفسرين لم تنصرف جهودهم إلى استنباط قواعد هذا العلم؛ وإنّما صُرفت –في الغالب– في بيان الوجوه الأدبية، والبيانية، والتاريخية، والعلمية...إلخ، لكنّ هناك بعضًا من المفسرين سلكوا اتّجاهًا تفرّدوا به عن هؤلاء المفسرين ، فوظّفوا القصص في التقاط فنٍّ هو أشدُّ ما تكون حاجة الناس إليه ألَا وهو "علم الاجتماع".وعند النظر في كتب التفسير لنعرف أيًّا منها قد حوى إشارات علم الاجتماع نجد أنّ أكثر التفاسير ذكرًا له هو تفسير المنار، لمؤلفه الشيخ محمد رشيد رضا، والذي ضمّنه تفسير شيخه محمد عبده، فالشيخان الأستاذ والتلميذ قد اشتركا في توظيف قصص القرآن؛ وذلك بإظهار أُسس علم الاجتماع ومبادئه؛ وما كان ذلك منهما إلّا لأنّهما استشعرا واقع أُمّتهم فأفرغا جهدهما في التقاط سنن علم الاجتماع والعمران، والخلافة على الأرض عند تفسيرهما لآي القرآن الكريم، ولا سيّما القصص القرآني.وقد وقع اختياري على قصتين جاءتا متصلتين في سورة البقرة، وهما: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت، والقصة التي بعدها، قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيّهم أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله، وهي من [الآية:٢٤٣ إلى الآية:٢٥٢]؛ وذلك لشدّة الشبه بين أصحاب تلك القصتين وحال أُمّتنا اليوم؛ ولأنّ الشيخين قد اجتهدا في توظيف القصتين في استنباط سنن علم الاجتماع منهما. وكان هدف البحث من اختيار هذا الموضوع وتخصيصه بهاتين القصتين هو معرفة أسباب ضعف أُمّتنا وذهاب عِزّها واستقلالها، ومن ثَمَّ رسم سبل العودة بها إلى وجهتها التي كانت عليها؛ وذلك بالتقاط مناهج الإصلاح التي أشارت إليها القصّتان، لنرتقي بأُمّتنا بين الأمم. وقد اتّخذتُ في دراستي المنهجَ الآتي: بعد المقدمة، قسمّتُهُ على تمهيد ومبحثين، وخاتمة:

التمهيد: أفردته للتعريف بالتوظيف، وبتاريخ علم الاجتماع ومفهومه، وبالقصتين المختارتينِ، وبشكل موجز.

المبحثُ الأوّل: خصصته للقصة الأولى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت.

المبحث الثاني: خصصته للقصة الثانية قصة الملأ من بني إسرائيل الذين طلبوا من نبيّهم أن يبعث لهم ملكًا ليقاتلوا في سبيل الله. وسيكون المنهج في هذين المبحثين موجهًا نحو التقاط مظاهر علم الاجتماع في الأُمم التي جاء ذكرها أثناء تفسير القصتين في تفسير المنار، وتوضيح مقاصد التفسير ومآلاته للوصول إلى معرفة حقائق القرآن وسننه في الجماعات ارتقاءً أو هبوطًا، أمّا تفسيرهما فسأذكره إجمالًا.

أمّا الخاتمة: فقد ذكرت فيها أبرز النتائج، التي توصل إليها البحث.

التمهيد: التعريف بمفردات البحث:

المطلب الأول: تعريف توظيف القصص القرآني عند المفسرين:

أولًا: التوظف:

لغة: قال الخليل: "وَقَدْ وَظَّفْتُ له تَوْظِيفًا، ووَظَّفْتُ عَلَى الصَّبِيِّ كلَّ يَوْمٍ حِفْظَ آياتٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَوْظِيفًا"(١).وقال ابن فارس: "الوَاوُ، والظَّاءُ، والفَاءُ كَلِمةٌ تَدلُّ عَلَى تَقْدِيرِ شيءٍ يُقَالُ وَظَّفْتُ لَهُ إذا قَدّرت لَهُ كلَّ حِينٍ شيئًا مِنْ رِزق، أو طعامٍ"(٢).وقال ابن منظور: "ووَظَفَ الشيءَ عَلَى نَفْسِهِ، ووَظَّفَهُ تَوْظِيفًا: أَلْزَمَهَا إيَّاهُ"(٣)، وقال أيضًا: "وسَبَّعَ فُلانٌ القُرآنَ، إذا وَظَّف عَلَيْه، قِرَاءتَهُ في سَبْعِ لَيَالٍ"(٤).وجاء في معجم اللُّغة العربية المعاصرة: "وَظَّفَ يُوَظِّفُ تُوْظِيفًا، فَهُوَ مَوَظِّف، والمَفْعول مُوظَّف... وَوَظَّفَ رأس مالِهِ: استثمرهُ، ونمّاه... ووظَّف المُؤسَّسة: زَوَّدَهَا بِأَعْضَاءٍ، أو مُوَظَّفِينَ جُدُد... والتَوْظِيفُ: مَصْدَر: وظَّف"(٥).إنّ قراءةً في هذه التعريفات اللُّغوية تُبيّن أنّ التوظيف يحمل معاني تدل على: **المداومة على الشيء، والاستعانة به؛ لاستثماره، والانتفاع منه.**

واصطلاحًا: لم أجد مَن عرّفه مفردًا إلّا مركبًا إضافيًا، أو وصفيًا، نحو: توظيف المال، توظيف الموارد، سياسة توظيفية، تحليل وظيفي، أو أنماط وظيفية، أو تحول وظيفي[٦]، وهو بهذا لا يخرج عمّا عرّفناه في اللُّغة.

ثانيًا: القصص القرآني عند المفسرين:

القصص:

لغة: القَصَص: مصدر من قصَّ يقصُّ يدل على تتبع أثر الشيء[٧].

واصطلاحًا: هو: "الأخبَارُ المُتَتَّبعةُ"[٨]، و(القرآني) قيد فيه، ومعنى (القصص القرآن) هو: مجموع الكلام المُشتمل على ما يهدي إلى الدين ويُرشد إلى الحق بطلب النجاة"[٩] أو هو: "إخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة والحوادث الواقعة"[١٠]، وعند المفسرين قيد ثان فيه.

ثالثًا: معنى توظيف القصص القرآني عند المفسرين:

هو: مداومة المفسر على استنباط هدايات قصص القرآن؛ لغرض الانتفاع بها عند مواجهة متطلبات واقعه المحيط به.

المطلب الثاني: التعريف بتاريخ علم الاجتماع ومفهومه.

إنّ ما يقع في هذا العالم من حوادث ومجريات لا يقع مصادفة، ولا خبط عشواء، وإنّما يقع ويحدث على وفق قانون عام دقيق ثابت صارم لا يخرج عن أحكامه شيء، فالظاهرات الكونية، والكائنات الحية بما فيها الإنسان هي خاضعة لهذا القانون الثابت.

وإنّ شطر هذا القانون يتعلق بخضوع البشر له بوصفهم أفرادًا وأممًا وجماعات، أي: خضوع تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية، أو الضيق في العيش، والسعادة والشقاء، والعزّ والذلّ، والرقي والتأخر، والقوّة والضعف، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يصيبهم في الآخرة من عذاب، أو نعيم وفقًا لأحكام هذا القانون.[١١]إنّ هذا القانون الإلهي مبسوط في آي القرآن الكريم، ولا سيما القصص القرآني، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب:٦٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر:٤٣].إلّا أنّ هذا العلم لم يأخذ حظه من التأليف كباقي العلوم الأخرى، ثم أملت الظروف المحيطة بالأُمّة الإسلامية في القرن الثامن الهجري ولا سيما المغرب العربي[١٢] أن يتنبّه ابن خلدون المعاصر لتلك الأحداث إلى الكتابة فيه، فكان أوّل مَن أسس علمًا يُعنى بسنن الاجتماع والعمران[١٣]، ومعرفة أحوال الأُمم في بداوتها وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها وتدليها وترقيها[١٤]، قال ابن خلدون: "ونحن الآن نبيّن في هذا الكتاب ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك، والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة، وتدفع بها الأوهام وترفع الشكوك"[١٥] إلّا أنّه لم يتابع من أبناء جلدته، فكان أن ترجمت مقدمته إلى لغات عدّة، ومنها الفرنسية، فالتقط منها العالم الفرنسي (أوجست كونت)، فأسس علمًا يعرف بعلم الاجتماع، ومن ذلك الوقت تتابع العلماء في التأليف فيه، ووضع النظريات المتعددة، فمن أبرزها النظرية البنائية الوظيفية، والنظرية الماركسية،...وغيرهما من النظريات التي يحصرها المتخصصون في اتّجاهين رئيسين: أحدهما: اتّجاه محافظ، والآخر: اتّجاه رافض ثوري.[١٦]

المطلب الثالث: مدخل إلى القصتين.

تنوعت جهود المفسرين في استنباط مقاصد القرآن من سوق قصص القرآن، ومنها هاتان القصّتان التي التقط بعضهم منها مقصدًا، أو أكثر أراد التنبيه عليه، فمن هؤلاء :قال الرازي:" اعلم أنّ عادته تعالى في القرآن أن يذكر بعد بيان الأحكام القصص ليفيد الاعتبار للسامع، ويحمله ذلك الاعتبار على ترك التمرد والعناد، ومزيد الخضوع والانقياد فقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾."[١٧] وقال السيوطي: "وعلم القصص وهو الاطلاع على أخبار الأُمم السالفة والقرون الماضية ليعلم المطلع على ذلك سعادة من أطاع الله، وشقاوة من عصاه."[١٨] وقال صاحب المنار في بيان الفرق بين قصص القرآن وغيره من القصص، وكتب التاريخ: "بدأ الأستاذ الإمام (رحمه الله) تعالى تفسير هذه الآية ...﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ ﴾ أنّ القرآن لم يعين أولئك القوم ولا الزمان ولا المكان اللّذينِ كانوا فيهما... ثم ذكر هاهنا قصة أخرى عن بني إسرائيل، فعين القوم وذكر أنّه كان لهم نبيّ ولم يذكر اسمه، ولا الزمان، ولا المكان اللّذينِ حدثت فيهما القصة، ولكنّه ذكر بعد ذلك اسم طالوت وجالوت وداود...ثم قال: وليس القرآن تاريخًا ولا قصصًا وإنّما هو هداية وموعظة، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها، ولا لأجل التفكه بها، أو الإحاطة بتفصيلها، وإنّما يذكر ما يذكره لأجل العبرة كما قال: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف:

١١١]، وبيان سنن الاجتماع كما قال: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال:﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٥]، وغير ذلك من الآيات... فلا غرو أن يكون في هذه القصص التي يعظنا الله بها ويعلمنا سننه ما لا يعرفه الناس."[١٩]وقال أيضًا: "وتدبر ما فيه-يقصد قصص القرآن- من حقائق علم الاجتماع في القرآن; لتعلم أن حقائق هداية كتاب الله يتجلى منها في كل عصر للعارفين بالله ما لم يتجل لسواهم، وأنّه الكتاب الذي لا تنتهي هدايته ولا تنفد معارفه."[٢٠]وقال سيد قطب(رحمه الله) وهو يتكلم عن القصص بصورة عامة وعن القصتين بصورة خاصة: "ومن ثَمَّ جاء القصص في القرآن بهذه الوفرة، وبهذا التنوع، وبهذا الإيحاء، وقصص بني إسرائيل هو أكثر القصص وروداً في القرآن الكريم، لأسباب عدة...، منها أنّ الله- سبحانه- علم أنّ أجيالاً من هذه الأُمّة المسلمة ستمر بأدوار كالتي مرّ فيها بنو إسرائيل... فعرض عليها مزالق الطريق، مصورة في تاريخ بني إسرائيل، لتكون لها عظة وعبرة ولترى صورتها في هذه المرآة ... قبل الوقوع في تلك المزالق، أو اللجاج فيها على مدار الطريق، إنّ هذا القرآن ينبغي أن يقرأ وأن يتلقى من أجيال الأُمّة المسلمة بوعي. وينبغي أن يتدبر على أنّه توجيهات حيّة، تتنزل اليوم، لتعالج مسائل اليوم، ولتنير الطريق إلى المستقبل... وحين نقرأ القرآن بهذا الوعي سنجد عنده ما نريد... وسنجد عندئذ في القرآن متاعًا وحياة وسندرك معنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤]، فهي دعوة للحياة، للحياة الدائمة المتجددة، لا لحياة تاريخية محدودة في صفحة عابرة من صفحات التاريخ، هذا الدرس يعرض تجربتين من تجارب الأمم ..والأولى تجربة لا يذكر القرآن أصحابها، ويعرضها في اختصار كامل، ولكنّه وافٍ فهي تجربة جماعة﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ فلم ينفعهم الخروج والفرار والحذر وأدركهم قدر الله... وفي ظل هذه التجربة يتجه إلى الذين آمنوا يحرضهم على القتال، وعلى الإنفاق في سبيل الله، واهب الحياة، وواهب المال. والقادر على قبض الحياة، وقبض المال. والثانية تجربة في حياة بني إسرائيل من بعد موسى، بعد ما ضاع ملكهم، ونهبت مقدساتهم، وذلُّوا لأعدائهم، وذاقوا الويل بسبب انحرافهم عن هدْي ربهم، وتعاليم نبيهم.. ثم انتفضت نفوسهم انتفاضة جديدة واستيقظت في قلوبهم العقيدة واشتاقوا القتال في سبيل الله. فقالوا: ﴿ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾...إلخ." [٢١]

المبحث الأول: القصة الأولى: قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

المطلب الأول: القصة ومعناها الإجمالي:

أولًا: جاءت القصة الأولى في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ۖ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ البقرة:٢٤٣-٢٤٥

ثانيًا: المعنى الإجمالي: ألم تعلم يا محمدﷺ بحال أولئك الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف[٢٢]، فارّين من الجهاد في سبيل الله، ومقاتلة عدوهم[٢٣]، خوفًا من الموت، فأماتهم الله قبل آجالهم، ثم أحياهم إلى آجالهم؛ وذلك فضلًا منه، ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله، ثم أمرهم بالقتال، أو أمر المؤمنين بأن يقاتلوا في سبيل الله فلا يمنعكم خوف الموت فتفروا من عدوكم فتذلوا ويأتيكم الموت الذي خفتموه في مأمنكم، كما أتى الذين خرجوا من ديارهم فرارًا من الموت، واعلموا أنّ الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم، ثم استدعى عباده إلى الإنفاق في سبيله فلا يتأخروا عن ذلك فالله وحده بيده قبض أرزاق العباد وبسطها، وأنكم إليه وحده ترجعون يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم.[٢٤]

المطلب الثاني: توظيف القصة في علم الاجتماع

الموطن الأول: توظيف تعاون الجماعات في حياة الأمم وموتها.بدأ صاحب المنار عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ ببيان سنة الله في موت الأُمم فقال: "والكلام في القوم لا في أفراد لهم خصوصية; لأنّ المراد بيان سنته تعالى في الأُمم التي تجبن فلا تدافع العادين عليها، ومعنى حياة الأُمم وموتها في عرف الناس جميعهم معروف، فمعنى موت أولئك القوم هو أنّ العدوّ نكّل بهم فأفنى قوتهم، وأزال استقلال أُمّتهم، حتى صارت لا تعد أُمّة، بأن تفرّق شملها، وذهبت جامعتها، فكلّ من بقي من أفرادها خاضعين للغالبين ضائعين فيهم، مدغمين في غمارهم، لا وجود لهم في أنفسهم، وإنّما وجودهم تابع لوجود غيرهم، ومعنى حياتهم هو عود الاستقلال إليهم."[٢٥]تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

- بدأ في الكشف عن المراد من سوق القصة وهو بيان سنن الله في الجماعات.

– ثم شخص علّة موت الأمم بسبب خوفها وتركها الدفاع عن نفسها، يُشير إلى سنة التدافع[٢٦] في الأرض قال تعالى:﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾.

– ثم بيّن نتائج هذا الخوف بأن تمكّن عدوّها منها ففرّق شملها، وأذهب قوتها وعزّتها، فجعلها أُمّة خاضعة تابعة ذليلة له، لا تخرج عن أمره، وهذه سنة الله بين الأمم القوية والأمم الضعيفة، قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ [النمل:٣٤].والذي يتبيّن لي ممّا ذكر في أعلاه أنّ قاعدة علم الاجتماع تدور حول تعاون الجماعة[٢٧] فإذا توقف التآصر بين أفرادها أدّى إلى إفراغها من كلّ مصادر قوتها، ثم إلى التقاطع، والتناحر فيما بينهم، قال تعالى:﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٠٣]، قال ابن مسعود: "حبل الله: الجماعة"[٢٨]، التي يجب أن يسري التعاون بين أفردها، أمّا إذا فُقِد التعاون فعندها لا تبقى أيّ قيمة للجماعة مهما بلغ عددها[٢٩]، وليت شعري ما أشبه اليوم بالأمس فها هي أُمّتنا العربية والإسلامية عددهم كثير إلّا أنّها فقدت أواصر التعاون فيما بينها، ثم انقلب الأمر إلى التقاتل، بل وصل الأمر إلى التناحر بين أفراد الجماعة الواحدة.

ثم بيّن سنة الله في إحياء الأُمم فقال: "ذلك أنّ من رحمة الله تعالى في البلاء يصيب الناس، أنّه يكون تأديبًا لهم، ومطهرًا لنفوسهم ممّا عرض لها من دنس الأخلاق الذميمة، أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الجبن والخوف والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها، فجمعوا كلمتهم، ووثقوا رابطتهم، حتى عادت لهم وحدتهم قوية فاعتزوا وكثروا إلى أن خرجوا من ذلّ العبودية التي كانوا فيها إلى عزّ الاستقلال."[٣٠]تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– إنّ بعض ما يقع على الأُمم من المصائب والبلايا بسبب سوء أعمالها، وفسادها في الأرض، هو سنة من سنن الله في الأمم والجماعات، قال تعالى:﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء:١٢٣]، وقد تكون تلك المصائب عقوبة لها، وقد تكون تأديبًا ورحمة بها ولا سيما الأمم الموحدة التي قد تأخذها الغفلة أحيانًا فتتدخل عناية الله اللطيف الخبير لإيقاظها وإرشادها إلى طريق الحقّ قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

– ثم بيّن الغاية من هذه المقدمات أي: العقوبات، هي إخراج الجماعات ممّا هي فيه من ذلٍّ وقهرٍ، كي تنطلق نحو وحدة كلمتها، وتفعيل قاعدة التعاون التي بموجبها تصل إلى تحرير نفسها من رقِّ العبودية وذلّ التبعية، فتستقل بقرارها.

هذا وإنّ الناظر إلى واقع أُمّتنا يرى أنّ كلمتها مرهونة بمن جعلها تابعة له، أمّا التي فكّت رقبتها من هذه القوى فقد أصبحت حرّةً في اتخاذ قراراتها وواقعنا يشهد بذلك.

ثم ختم ببيان مجمل لما فصّل فقال: "فهذا معنى حياة الأُمم وموتها، يموت قوم منهم باحتمال الظلم، ويذلّ الآخرون حتى كأنّهم أموات، إذ لا تصدر عنهم أعمال الأُمم الحية، من حفظ سياج الوحدة، وحماية البيضة، بتكافل أفراد الأُمة ومنعتهم؛ فيعتبر الباقون فينهضون إلى تدارك ما فات، والاستعداد لما هو آتٍ، ويتعلمون من فعل عدوّهم بهم كيف يدفعونه عنهم."[٣١]

– هنا عاد إلى ذكر موطن العظة من سوق القصّة وهو الاعتبار بمَن سبق، وحثّ مَن شابههم إلى تدارك الأمر؛ وذلك بتفعيل التكافل بين أفراد الأُمّة وهو التعاون، ومن ثَمَّ النظر إلى المستقبل.

يتبيّن لنا أنّ صاحب المنار قد نهج في توظيف تفسير القصة في فهم علم الاجتماع، أي: سنن الله في الأُمم والجماعات فسلك أولًا: ذكر مقدمات موت الأُمم، وهي فقدان التعاون وما يتبعه من خوف وضعف، وذلّ وتبعية...إلخ، ثم ثنى بأن رغّب في مقدمات إحياء الأُمم من تفعيل التعاون، بالوحدة والتكافل...إلخ؛ لتسترد قوتها فتتحرر وتعزّ نفسها... ثم حثّ على النظر إلى المستقبل كي تُعاد الفاعلية إلى تلك الأُمم والجماعات.

الموطن الثاني: توظيف صياغة النص في بيان أهمية الزمان في بناء الامم.قال صاحب المنار: "وانظر إلى دقّة التعبير في عطف الأمر بالموت على الخروج من الديار بالفاء الدالة على اتصال الهلاك بالفرار من العدوّ، وإلى عطفه الإخبار إحيائهم بـ (ثم) الدالة على تراخي ذلك وتأخره; ولأنّ الأُمّة إذا شعرت بعلّة البلاء بعد وقوعه بها وذهابه باستقلالها فإنّه لا يتيسر لها تدارك ما فات إلّا في زمن طويل."[٣٢]

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– التنبيه على أنّ من سنن الله في الأرض أنّ الأمم إذا ضعفت أدّى ذلك إلى نقصان سلطانها، ثم إلى نقض عمرانها، وسرعة هلاكها، واستدل على هذه السنة من النظم القرآني، وتعبيره بالفاء عقب خروج القوم خائفين في قوله:﴿ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾.

– ثم نبّه على أنّ سنة الله في إحياء الأمم تقتضي وقتًا لإعادة الحياة إليها، وبناء عمرانها، مستدلًا على ذلك من التعبير القرآني بالحرف(ثم) في قوله تعالى﴿ ثُمَّ أَحْيَيْنَٰهُم ﴾.

إذًا هو يوظف القصة لبيان أهمية الوقت في العمران، ووجوب المحافظة عليه؛ لأنّه بعد هدمه تحتاج الأُمّة إلى وقت أطول؛ ممّا يجعلها تتأخر عن ركب التقدم العمراني والحضاري، الذي تنال الأُمّة به الرّيادة بين الأُمم.

الموطن الثالث: فضل الله في إحياء الأُمم الضعيفة.

قال صاحب المنار: "﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾كافة بما جعل في موتهم من الحياة، إذ جعل المصائب والعظائم مُحْيِيةً للهمم والعزائم كما جعل الهلع والجبن وغيرهما من الأخلاق التي أفسدها الترف والسرف من أسباب ضعف الأُمم، وجعل ضعف أُمّة مغريًا لأُمّة قوية بالوثبان عليها، والاعتداء على استقلالها، وجعل الاعتداء مُنبهًا للقوى الكامنة في المعتدى عليه، ومُلجئًا له إلى استعمال مواهب الله فيما وهبت لأجله حتى تحيا الأُمّم حياة عزيزة، ويظهر فضل الله تعالى فيها."(٣٣)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– وظّف ختم الآية في بيان فضل الله في إماتة بعض الأُمم؛ وذلك لإحيائها من جديد أي: بعث الهمم الكامنة في النفوس، لتحيا حياة عزيزة.

– وبيّن أنّ الترف والإسراف يولدان الضعف والجُبن في الأُمم فيصبح ضعفها مطمعًا للأُمم القوية.

ثم ذكر تفسير شيخه للآية نفسها فقال: "قال الأستاذ الإمام: المراد بالفضل هنا الفضل العام، وهو أنّه تعالى جعل إماتة الناس بما يسلط على الأُمّة من الأعداء ينكلون بها بمثابة هدم البناء القديم المتداعي والضرورة قاضية ببنائه، فلا جرم تنبعث الهمة إلى هذا البناء الجديد فيكون حياة جديدة للأُمّة، تفسد أخلاق الأُمم فتسوء الأعمال، فيسلط الله على فاسدي الأخلاق النكبات ليتأدب الباقي منهم فيجتهدوا في إزالة الفساد، وإدالة الصلاح، ويكون ما هلك من الأُمّة بمثابة العضو الفاسد المصاب ((بالغنغرينا)) يبتره الطبيب ليسلم الجسد كلّه، ومَن لا يقبل هذا التأديب الإلهي فإنّ عدل الله في الأرض يمحقه منها ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، فهذه سنة من سنن الاجتماع بينها القرآن، وكان الناس في غفلة عنها، ولهذا قال﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ أي: لا يقومون بحقوق هذه النعمة، ولا يستفيدون من بيان هذه السنة; أي: هذا شأن أكثر الناس في غفلتهم وجهلهم بحكمة ربهم، فلا تكونوا كذلك أيّها المؤمنون، بل اعتبروا بما نزل عليكم وتأدبوا به لتستفيدوا من كل حوادث الكون، حتى ممّا ينزل بكم من البلاء إذا وقع منكم تفريط في بعض الشؤون واعلموا أنّ الجبن عن مدافعة الأعداء، وتسليم الديار بالهزيمة والفرار، هو الموت المحفوف بالخزي والعار، وأنّ الحياة العزيزة الطيبة هي الحياة الْمِلِّيَّةُ المحفوظة من عدوان المعتدين، فلا تقصروا في حماية جامعتكم في الملة والدين." (٣٤)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– وظّف التفسير لبيان سنة الله في ابتلاء(٣٥) الأُمم، سواء أكان خيرًا أم شرًا، قال تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥]، أي: ما تمرّ به الأمم من ابتلائها بالشرّ على أنّه فتنة لتنقية الجماعة من العنصر الفاسد.

– ثم في الختام التأكيد على مسألة سنة التدافع؛ لحماية جامعة الأُمّة.

والذي يبدو لي أنّ الشيخين قد سلكا أكثر من طريق في توظيف خاتمة الآية في سنن علم الاجتماع، إلّا أنّها تدور على نوعين من السنن، أحدهما: سنة الابتلاء لغرض تمحيص الأُمّة قال تعالى﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤١]، ومن ثَمَّ إعادة الحياة لها لتسلك وجهتها الصحيحة، الآخر: سنة التدافع التي بها يأخذ الحق مكانه فيقمع جماح الباطل عن غيّه، فهي سنة ضامنة لبقاء الأمم فمن تركها أطمع الباطل فيه.

المبحث الثاني: القصة الثانية: قصة الملأ من بني إسرائيل وطلبهم من نبيّهم أن يبعث لهم ملكًا

المطلب الأول: القصة ومعناها الإجمالي:

أولًا: جاءت القصة الثانية في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ

﴿ٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة:٢٤٦-٢٥٢].

ثانيًا: المعنى الإجمالي:

بدأت الآية الأولى بذكر مجمل للقصة، والمعنى: ألم تعلم يا محمدﷺ خبر القوم، أو الأشراف من بني إسرائيل اشتدّت بهم الحاجة بعد أن نالتهم ذِلّةٌ وغلبة عدوّهم، حتى طلبوا من نبيّهم زعيمًا يقودهم في الجهاد لاسترجاع ديارهم وأبنائهم منه، فلمّا أمروا كعّ[٣٦] أكثرهم، وصبر الأقل فنصرهم الله[٣٧]... ثم بعد ذلك فصّل سبحانه وتعالى القصة كما في الآيات أعلاه.

المطلب الثاني: توظيف القصة في علم الاجتماع

الموطن الأول: عند ذكره مناسبة اتصال هذه القصة بالتي قبلها.

قال صاحب المنار: "وهذه القصة –قصة قوم من بني إسرائيل – تؤيد ما قبلها من حاجة الأُمم إلى دفع الهلاك عنها، فهي تمثل لنا حال قوم لهم نبيّ يرجعون إليه، وعندهم شريعة تهديهم إذا استهدوا، وقد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم بالقهر – كما خرج أصحاب القصة الأولى بالجبن – فعلموا أنّ القتال ضرورة لا بُدّ من ارتكابها ما دام العدوان في البشر، وبعد هذا كلّه جبنوا وضعفوا عن القتال فاستحقوا الخزي والنكال، فهذه القصة المفصلة فيها بيان لما في تلك القصة المجملة... وجاءت هذه القصة الإسرائيلية تمثل العبرة فيه، وتفصل كيفية احتياج الناس إليه; إذ بيّنت أنّ هؤلاء الناس احتاجوا إلى مدافعة العادين عليهم، واسترجاع ديارهم وأبنائهم من أيديهم، واشتدّ الشعور بالحاجة حتى طلبوا من نبيّهم الزعيم الذي يقودهم في ميدان الجلاد، وقاموا بما قاموا به من الاستعداد، ولكن الضعف كان قد بلغ من نفوسهم مبلغًا لم تنفع معه تلك العدة، فتولوا وأعرضوا للأسباب التي أشير إليها، وألهم القليل منهم رشدهم واعتبروا فانتصروا." [٣٨]

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

- التأكيد على حاجة الأُمم لسنة التدافع، إذ الأُمم الضعيفة الخائفة لا مكان لها في العيش العزيز، وإنّما مكانها في ركب التبعية الذّليلة.
- ثم بيّن أنّ الأُمم من شدّة حاجتها إلى الدفاع عن نفسها تطلب ممّن هو قائم على أمرها أن يهيئ لها قائدًا يقودها في الحرب لاسترداد حقوقها المغتصبة.
- وبيّن أنّ أصوات الخائفين الجبناء التي تنادي إلى جهاد العدوّ لاسترداد الحقوق قد لا تكون صادقة عند الكثيرين منهم ساعة وقوع اللقاء؛ وسبب ذلك تمكن الضعف في نفوسهم.
- ثم بيّن أنّ الفئة القليلة التي أخذت العبرة والدرس ممّا حلّ بها سابقًا فأقدمت على الجهاد في سبيل الله ولم تتردد كان النصر حليفها.

والذي يبدو لي أيضًا أنّ صاحب تفسير المنار يؤكد كثيرًا على سنة التدافع، وما ذلك إلّا لحاجة أُمّتنا وقت ذاك، وما أحوجها اليوم، فأمّتنا اليوم فقدت سنة التدافع بين الحق والباطل، ولم تفقه ما عليها من واجبات تجاه نصرة الحق، قال تعالى﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد:١٧].

وإنّنا لو أمعنا النظر في حاجات شعوب أُمّتنا لوجدنا من أهمّها هي البحث عن قائد يقودها للنصر على مَن أذلّها وكسر شوكتها، إذ القائد هو مَن يمسك بزمام الجماعة ليقودها إلى النصر، وقد ظهر أكثر من رجل اعتبر نفسه قائدًا ومنقذًا للأُمّة، لكن لا هو كان أهلًا لهذه المهمة، أو أنّ الشعوب لم تكن أهلًا لهذه المهمة، ولم تستوعب دروس التاريخ، فتركته في منتصف الطريق، كما قال أولئك لملكهم وقائدهم

قال تعالى حكاية عنهم:﴿ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ أو أنّ الشعوب انقسمت بين محبة للتبعية والعبودية، وبين ثورية حائرة بلا قائد وبلا منهج، فتناحرت فيما بينها.

الموطن الثاني: عند تفسيره لقوله تعالى﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

قال صاحب المنار: "وفي الآية من الفوائد الاجتماعية أنّ الأُمم التي تفسد أخلاقها وتضعف، قد تفكر في المدافعة عند الحاجة إليها وتعزم على القيام بها إذا توفرت شرائطها التي يتخيلونها...ثم إذا توفرت الشروط يضعفون ويجبنون، ويزعمون أنّها غير كافية ليعذروا أنفسهم وما هم بمعذورين ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الذين يظلمون أنفسهم وأُمتهم بترك الجهاد دفاعًا عنها وحفظا لحقها، فهو يجزيهم وصفهم فيكونون في الدنيا أذلّاء مستضعفين، وفي الآخرة أشقياء معذبين."(٣٩)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

- ما زال صاحب المنار يوظف النصّ الشريف لبيان أهمية سنة التدافع عند توافر شروطها ولا سيما عند الأُمم التي فسدت أخلاقها وضعف عزمها، لكن هذه الأُمم التي نخرها الفساد عندما تحين ساعة الجهاد يتولى الجمع ويتخاذل بما جُبل عليه من الذلّة والمسكنة.

إنّ ما قصّه القرآن علينا ها هو اليوم واقع بأُمّتنا، الكلُّ يتكلم، ويشرح، وينظر، وينادي لكن كلّما قربت ساعة اللقاء والحسم عاد الخوف والجبن يطل علينا بأثواب النفاق، فيثبطون العزائم تارة، ويبررون الجبن والخوف تارة أخرى، بل إنّهم يحاربون الفئة القليلة الصابرة المتوكلة على الله، كلّ ذلك ليجعلوا الجمع في خانة الذلّ والخضوع والتبعية.

الموطن الثالث: عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾. بعد أن عرض صاحب المنار أقوال المفسرين عقّب بقوله: "والمتبادر عندي أنّ معناه فضله واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد الفطري للملك، ولا ينافي هذا كون اختياره كان بوحي من الله; لأنّ هذه الأمور هي بيان لأسباب الاختيار وهي أربعة: (١) الاستعداد الفطري (٢) السعة في العلم الذي يكون به التدبير (٣) بسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكمال قواه المستلزم ذلك لصحة الفكر... وللشجاعة...،(٤) توفيق الله تعالى الأسباب له وهو ما يعبر عنه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾، وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك; لأنّ المزايا الثلاث إذا وجدت سهل على صاحبها الإتيان بالمال...وقد قدّم الأركان الثلاثة على الرابع لأنّها تتعلق بمواهب الرجل الذي اختير ملكًا فأنكر القوم اختياره فهي المقصودة بالجواب."(٤٠)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

- وظّف النصّ القرآني في الردّ على الأشراف من بني إسرائيل في كيفية اختيار القائد الذي يقود الأُمّة إلى النصر فاستنبط منه شروطًا أربعة يجب أن تتوافر في القائد، ثلاثة تتعلق بالقائد وهي: : استعداده للقيادة، وأن يكون عالمًا بأمور مهمته، وأن يتصف بكمال العقل والشجاعة لتعينه على أداء مهمته، وواحدة تتعلق بالتسديد الإلهي ورعايته.

- بيّن أنّه سبحانه أخّر التسديد الإلهي وتوفيقه وكان حقه التقديم، لأنّ السياق في الردّ على القوم الذين رسخ في عقولهم أن يكون القائد صاحب ملك وجاه.

- لم يَعُدَّ المال شرطًا كما عدّه بنو إسرائيل قال تعالى حكاية عنهم ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ ﴾ إذًا المال تابع، أو حاصل بعد توافر الشروط الأربعة.

- إنّ توافر الشروط الثلاثة في القائد هي سنة من سنن الله بدلالة سياق الآية نفسها قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ ، أي: أنّ سنة الله في إيتاء الملك تتوافق مع مَن يمتلك الشروط الثلاثة.

والذي يبدو لي أنّه فصّل القول ووظّف سياق الآية لعلم الاجتماع، الذي يدور حول الجماعة وما تحتاجه، ومن ذلك صفات قائدها بطريقة لم يسبقه أحد من المفسرين إليها(٤١).

الموطن الرابع: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾.

قال صاحب المنار: "وأقول: إنّ من الناس مَن يظن أنّ معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أنّ الله تعالى يفعله بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه في نظام خلقه، وليس كذلك فإنّ كلّ شيء بمشيئة الله تعالى:﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل، فإيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته إنّما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه، وبتوفيق

الأسباب لسعيه في ذلك; أي: هو بالجمع بين أمرين: أحدهما في نفس المَلِك، والآخر في حال الأُمّة التي يكون فيها... نعم إذا أراد الله إسعاد أُمّة جعل ملكها مقويًا لما فيها من الاستعداد للخير، حتى يغلب خيرها على شرّها، فتكون سعيدة، وإذا أراد إهلاك أُمّة جعل ملكها مقويًا لدواعي الشرّ فيها حتى يتغلب شرّها على خيرها، فتكون شقية ذليلة، فتعدوا عليها أُمّة قوية، فلا تزال تنقصها من أطرافها، وتَفْتَاتُ عليها في أمورها، أو تناجزها الحرب حتى تزيل سلطانها من الأرض، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سننه في نظام الاجتماع، فهو يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء. بعدل وحكمة، لا بظلم ولا عبث; ولذلك قال:﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقال:﴿ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فالمتقون في هذا المقام – مقام استعمار الأرض والسيادة في الممالك – هم الذين يتقون أسباب خراب البلاد وضعف الأمم، وهي الظلم في الحكام، والجهل وفساد الأخلاق في الدولة والأُمّة، وما يتبع ذلك من التفرق والتنازع والتخاذل، والصالحون في هذا المقام هم الذين يصلحون لاستعمار الأرض وسياسة الأمم بحسب استعدادها الاجتماعي."(٤٢)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– هنا بدأ بالتأكيد على أنّ سنن الله ثابتة في الأرض ولا تتعارض مع قوله إيتاء الملك لمن يشاء فهو إذا أراد إيتاء الملك لأُمّة هيّأ لها أسباب الملك بأن يهبها مَلكًا تقيًّا صالحًا، وجعل أفرادها يتقون الفساد ويباشرون الصلاح.

– ثم بيّن كيفية المحافظة على المجتمع من آفات الفساد التي تزيل الخلافة من الأرض على وفق سنن الله، قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس:٨١].

– ثم أكّد على دور الأتقياء والمصلحين ولا سيما القادة والحكام في الحفاظ على الأُمّة والمجتمع، فالمتقون يحفظون الأُمّة من أسباب الخراب بعدلهم، والمصلحون يديمون عملية التعاون فيستمر اجتماع الأُمّة وعمرانها، ومن ثَمَّ ترتقي في سلم التقدم الحضاري، الذي يحفظ مكانتها بين الأُمم، فلا تجرؤ أخرى لتعتدي عليها، فيكون قد وهبها الله الملك.

ومن يلاحظ حال أُمّتنا اليوم، يجدها لا تتقي أسباب الفساد، بل إنّ بعض قادتها قد جلب لها أنواع المفاسد وأدخلها في نزاعات داخلية وخارجية فأهلك الحرث والنسل، فأدّى إلى إزالة منعتها وجعلها أُكلةً للضباع، فلم يهب الله لهذه الأُمّة المُلك على وفق سننه في إيتائه.

الموطن الخامس: عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

قال صاحب المنار: "وهذه الأمور الثلاثة بعضها مرتب على بعض بحسب الأسباب الغالبة، فالصبر سبب للثبات الذي هو سبب من أسباب النصر، وأجدر الناس بالصبر المؤمنون بالله عزّ وجلّ الغالب على أمره."(٤٣)

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

– وظّف تناسب الألفاظ في الآية لبيان سنة اجتماعية في نصر الأُمم وهي الثبات على الحق والدفاع عنه ونصرته قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد:٧]، قال سيد قطب: "إنّ الظن يذهب لأول وهلة أنّ تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببًا فيه. وهذا صحيح. ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأنّ المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال. فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة."(٤٤)

– إذًا الثبات على الحقّ يحتاج إلى مقدمات، وهي المصابرة والمجاهدة لهوى النفس؛ لذا نال هؤلاء الصابرون معية الله، قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣]، ومحبته قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٦].

– والثبات على الحق والدفاع عنه من نتائجه الانتصار على الباطل ودحضه.

والذي يبدو لي أنّ صاحب المنار لا يزال يوظف السياق لسنة التدافع (الهدف الأساس من سوق القصة) وما تحتاج هذه السنة من سنن أخرى كسنة الانتصار للحقّ الذي تحفّه معية الله ومحبته، فتثبت به الأقدام فتنال النصر على الباطل.

الموطن السادس: سنة التدافع في الأرض.

قال صاحب المنار: "ثم بيّن تعالى حكمة الإذن بالقتال الذي قررته الآيات فقال: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ... أي: لولا أنّ الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الفساد في الأرض

بأهل الإصلاح فيها؛ لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض، وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحقّ المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحقّ حرب لأهل الباطل في كلّ زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحقّ وأرادوا الإصلاح في الأرض، وقد سمّى هذا دفعًا على قراءة الجمهور باعتبار أنّه منه سبحانه، إذ كان سنة من سننه في الاجتماع البشري، وسمّاه دفاعًا في قراءة نافع[٤٥] باعتبار أنّ كُلًّا من أهل الحقّ المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله."[٤٦]

تظهر مظاهر توظيف تفسير القصة لمعرفة سنن علم الاجتماع عند صاحب المنار في الآتي:

- ما انفك صاحب المنار يوظف آيات القصة في بيان سنة التدافع في الأرض بين الحقّ والباطل.
- بيّن أنّ هذه السنة هي فضل من الله؛ وذلك بأنّ أذن لأهل الحقّ بدفع الباطل.
- وبيّن أنّ الله حذر من ترك هذه السنة؛ إذ سنة التدافع تقتضي سلطان أحد الطرفين فإذا توقف أهل الصلاح عن نصرة الحقّ ساد أهل الباطل وعاثوا في الأرض فسادًا.والذي يبدو لي أنّ مَن ينظر في آيات هذه القصة وما جاد صاحب المنار به من تفسير كأنّما يحاكي واقع أُمّتنا اليوم، فأُمّتنا هي أُمّة الحقّ وهي صاحبة خاتمة الرسالات وأفضلها، إلّا أنّ الباطل يسود في كلّ أرجائها، والسبب في ذلك هو أنّ أهل الحقّ والصلاح توقفوا عن نصرة دينهم فأخزاهم الله وجعلهم أذلّة بيد أهل الباطل، فليت شعري متى تُفيق أمتنا من سباتها الذي طال، عسى أن يكون ذلك خيرًا.

الخاتمة وأبرز النتائج:

الحمدُ لله ربِّ العالمينِ، والصلاةُ والسلامُ على خاتمِ النَّبيِّينَ والمُرسلينَ محمدٍﷺ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

وبعد...

فقد تبيّن لي بعد قراءة تفسير المنار أنّ مُفَسِّرَه قد وظّف قسمًا من دلالات القصتين توظيفًا دقيقًا لبيان بعض سنن علم الاجتماع التي التقطها من القصتين، مُنبّهًا على أهميتها في معالجة واقع الأُمم، ضاربًا بذلك منهجًا جديدًا في استنباط هدايات القرآن الكريم التي لا تنفد على مرّ العصور وكرّ الدهور.

هذا وقد أظهر البحث النتائج الآتية:

١- كان للقصتين أكثر من هدف إلّا أنّ هدفهما الرئيس هو بيان سنة التدافع في الأرض بين الحقّ والباطل، وعلى رأسها الجهاد في سبيل الله.

٢- تضمنت القصتان سننًا أخرى: كسنة ابتلاء الأُمم الغافلة لأجل إيقاظها وإعادتها إلى رُشدها، وسنة الله في اختيار قائد الجماعة، وسنة المصابرة والثبات على الحق.

٣- إنّ كثرة أفراد الأُمّة، أو الجماعة لا يمنع من أن يصيبها الضعف، إذا فرطت بمنهج الاجتماع والتعاون.

٤- إنّ فساد أخلاق الأُمّة، أو الجماعة سبب رئيس في إدخال الوهن فيها، فتأتي سنة الابتلاء لإيقاظها من غفلتها.

٥- أهمية القائد في قيادة الجماعة، وتقدمه ركب المنازلة في مواجهة الباطل، فهو من أبرز شرائط النصر.

٦- يجب أن تتوافر في القائد شروط ليقود الجماعة: منها: الملكة، والعلم، والقدرة.

٧- ضرورة إطاعة مَن أُسندت إليه قيادة الجماعة أو الأُمّة، ما أطاع الله،

٨- إنّ حماسة الأُمم في استرداد الحقوق لا تكفي ما لم تثبت على الحقّ عند مواجهة الباطل، إذ الحقُّ يحتاج إلى الصبر والتضحية بالنفس والمال، فلا نصر بدون تكاليف؛ لذا وجب على الأُمّة أن تحسن توظيف جهودها وأن تنفق مالها في محلّه فلا إسراف ولا تقتير.

٩- إنّ ما ذُكِر في أعلاه من نتائج، ودروس استخلصت من القصتين يشبه حال أُمّتنا الإسلامية ولا سيما العربية، وهنا تظهر فائدة القصص القرآني والاستنارة بهداياته؛ وذلك بأن نبدأ بتصحيح المنهج، ورسم المستقبل على وفق سنن الله في الاجتماع البشري.

١٠- قد يكون ما عليه أُمّتنا اليوم من بلاء وفتنة هو تمحيص لها لترتفع أصوات الأشراف منهم سواء أكانوا قلّة أم كثرة، فتتوحد كلمتهم خلف قيادة (بعد أن تستكمل شروطها) تقودهم، إلى استرجاع مجدها.

بعدَ هذه الرحلة مع القصتين الكريمتين وما أفرزتهما من نتائج ظهر لي أنّ إصلاح أحوال أُمّتنا في الاجتماع والعمران يرتكز على أصل وهو: (التعاون)، وركنين وهما: (النظام، والعدل)(٤٧).

فالقاعدة: هي التعاون بين أفراد الجماعة الواحدة، أو بين الجماعات، إذ بالتعاون تبنى الأُمم، ويُصان أمنها، ويقوى مُلكها، ويعتزّ أفرادها،...وإلخ، فإذا فُقِد التعاون في أيّ جماعة، أو أُمّة فلا عبرة بعددها بعد أن أفرغت الأنانية، والفردية، واللامسؤولية محتوى الاجتماع، وهكذا حال أُمّتنا اليوم عددهم كثير لكنّهم غثاء كغثاء السيل.

أمّا النظام: فهو يحيط بالتعاون فيوحد جهود الجماعة وتكافلها، ويستثمر التعاون استثمارًا صحيحًا بقيادة حكيمة، ويمسك بزمام أخلاق المجتمع في تعاملاتهم، أي: كلّ فرد فيه يعرف ما له وما عليه؛ وذلك بتطبيق القوانين والنظم النافذة في المجتمع.

وأمّا العدل: فهو صمام أمان المجتمع، وحامي عقده من الانفراط، والمحافظ على ديمومته ما دام يحيط بالنظام وقوانينه المحيطة بالتعاون.

فهذه القاعدة وركناها المحيطان بها هي مقومات بناء كلّ مجتمع، مهما كانت تركيبته الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، لأنّها أساس سنن الله في الخلافة على الأرض، وهي جارية على وفق مشيئته سبحانه، أمّا إذا تساوت الأُمم في ذلك فإنّ أقربها إلى تطبيق المنهج الإلهي هو من تكون له الخلافة في الأرض، هذا وإنّ أمتنا الإسلامية هي أكمل الأمم منهجًا وشريعة، بقرآنها وسنة نبيّها محمدﷺ؛ إلّا أنّها مُذ أن فرطت بهما ولم تأخذ بسنن الاجتماع والعمران أذاقها الله لباس الخوف والذلّ.

قائمة المصادر والمراجع:

- بعد القرآن الكريم.

١. الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ)، حققه: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢. أسس علم الاجتماع: د: محمود عودة، دار النهضة العربية، بيروت- لبنان، د.ت.

٣. أولى ما قيل في آيات التنزيل: لرشيد الخطيب الموصلي (ت١٤٠٠هـ)، اعتنى به وقدم له: مجد أحمد مكي، أروقة للدراسات والنشر، ط/١، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.

٤. التسهيل لعلوم التنزيل: المؤلف: لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٦هـ.

٥. تفسير الجلالين: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (المتوفى:٨٦٤هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (المتوفى:٩١١هـ)، دار الحديث، القاهرة- مصر، الطبعة: الأولى، د.ت.

٦. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير): للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد شراد الناصري، دار ومكتبة الهلال، بيروت – لبنان، ٢٠٠٤م.

٧. تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

٨. تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبي منصور (ت٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠١م.

٩. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير بن يزيد الطبري (ت٣١٠هـ)، تحقيق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، دار هجر، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

١٠. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: الدكتور: عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، د.ت.

١١. الصحاح (تاج اللغة، وصحاح العربية): لأبي نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري (ت٣٩٨هـ)، تحقيق: محمد محمد تامر، وآخرين، دار الحديث، القاهرة – مصر، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

١٢. الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان (كتاب الأمة): منصور زويد المطيري، الدوحة- قطر، العدد:٣٣، ١٤١٣هـ.

١٣. الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون: عبد الغني مغربي، ترجمة: محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨.

١٤. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسن الشاربي (ت١٣٨٥هـ)، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط٣٤، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٥.القيادة دراسة في علم الاجتماع النفسي والإداري والتنظيمي: د: حسين عبد الحميد أحمد رشوان، مؤسسة شباب الجامعة، إسكندرية- مصر، ٢٠١٠م.

١٦.كتاب العين: لأبي عبدالرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.

١٧.الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحُججها: لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت٤٢٧هـ)، تحقيق: عبدالرحيم الطرهوني، دار الحديث، القاهرة – مصر، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

١٨.لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن علي أبي الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي (ت٧١١هـ) دار صادر، ط/٣، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ.

١٩.مبادئ علم الاجتماع: د: أحمد رأفت عبد الجواد، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة- مصر، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

٢٠.المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤١هـ)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢١.مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

٢٢.معجم اللغة العربية المعاصرة: لأحمد مختار عمر(ت١٤٢٤هـ)، وآخرين، عالم الكتب، ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.

٢٣.معجم المصطلحات الألسنية: د. مبارك مبارك، دار الفكر اللبناني، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م

٢٤.معجم المقاييس في اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ.

٢٥.المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة، لمحمد سالم محيسن، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط/٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

٢٦.مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لأبي عبدالله محمد بن عمر الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط/٣، بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ.

٢٧.مفردات ألفاظ القرآن: الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني، توفي بحدود (٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط/٣، دمشق – سوريا، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٢٨.مقدمة ابن خلدون: لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت٨٠٨هـ)، تح: عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، دمشق سوريا،١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.

٢٩.النشر في القراءات العشر: لأبي الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري (ت٨٣٣هـ)، تحقيق: علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/٣، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.

الهوامش

(١) كتاب العين: الفراهيدي: ٨: ١٧٠، وينظر: تهذيب اللغة الأزهري: ١٤: ٨٤.

(٢) معجم المقاييس في اللغة: لأحمد بن فارس: ١٠٩٦، وينظر: الصحاح (تاج اللغة، وصحاح العربية): لإسماعيل بن حمّاد الجوهري: ١٢٥٥.

(٣) لسان العرب: لمحمد بن منظور: ٩: ٣٥٨، مادة (وظف).

(٤) المصدر السابق: ٨: ١٤٧، مادة (سبع).

(٥) معجم اللغة العربية المعاصرة: لأحمد مختار عمر، وآخرين: ٣: ٢٤٦٤.

(٦) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة:٣: ٢٤٦٤. ومعجم المصطلحات الألسنية: د. مبارك مبارك: ١١١.

(٧) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٨٥٥، الجدول في إعراب القرآن:٣: ٢٠٥

(٨) مفردات ألفاظ القرآن:٦٧١.

(٩) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لأبي عبدالله محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، ط/٣، بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ: ٨/٢٥٠.

(١٠) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، مؤسسة الرسالة، ط/١، بيروت – لبنان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م: ٢٧٩، وينظر: بحوث منهجية في علوم القرآن: موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، ط/٢، عمان – الأردن، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م: ١٨٤.

(١١) ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: عبد الكريم زيدان:٢-٨

(١٢) بنظر: مقدمة ابن خلدون:١: ١٢٠.

(١٣) قال ابن خلدون: "واعلم أنّ الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة عزيز الفائدة،...ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة"، مقدمة ابن خلدون: ١: ١٢٨.

(١٤) بنظر: الكتاب الأول(في طبيعة العمران في الخليقة) من مقدمة ابن خلدون:١: ١٢٥، علمًا أن تعريف علم الاجتماع هو الإشكال الأول عند المتخصصين فيه فتباينت تعريفاتهم لتباين تصوراتهم لهذا العلم، وبسبب تداخله مع علوم أخرى تشترك معه؛ ولصلته الوثيقة بمعالجة مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية...، ينظر تفصيل ذلك: أسس علم الاجتماع: د: محمود عودة :١٥-٥٤.

(١٥) مقدمة ابن خلدون:١: ١٣١.

(١٦) ينظر: الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع:٢٤-٣٤، أسس علم الاجتماع:٨٧-١١٣، والفكر الاجتماعي عند ابن خلدون:٢٣، ٧٧.

(١٧) مفاتيح الغيب: للرازي:٦: ٤٩٥.

(١٨) الإتقان في علوم القرآن:٣: ٣٦٤.

(١٩) تفسير المنار:٢: ٣٧٣.

(٢٠) تفسير المنار:٢: ٣٦١.

(٢١) في ظلال القرآن:١: ٢٦١-٢٦٢.

(٢٢) قال الطبري والأولى بالصواب: "قول من حد عددهم بزيادة عن عشرة آلاف دون من حده بأربعة آلاف وثلاثة آلاف وثمانية آلاف؛ وذلك أنّ الله تعالى ذكره أخبر عنهم أنّهم كانوا أُلوفًا، وما دون العشرة آلاف لا يقال لهم أُلوف، وإنّما يقال: هم آلاف إذا كانوا ثلاثة آلاف فصاعدًا إلى العشرة آلاف، وغير جائز أن يقال: هم خمسة أُلوف، أو عشرة أُلوف"، جامع البيان:٤: ٤٢٤.

(٢٣) وقيل إنّهم فروا من الطاعون، ينظر: جامع البيان:٤: ٤١٤، والذي أثبتناه في أعلاه ذكره الطبري أيضًا أليق بلحاق سياق الآية قال تعالى﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ قال ابن عاشور: "فقيل هم من بني إسرائيل خالفوا على نبي لهم في دعوته إياهم للجهاد، ففارقوا وطنهم فرارًا من الجهاد، وهذا الأظهر،... وهذا أرجح الوجوه."، التحرير والتنوير:٢: ٤٧٨.

(٢٤) ينظر: جامع البيان: للطبري:٤: ٤١٣-٤٣٥، والتسهيل لعلوم التنزيل:١: ١٢٩، وتفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ١: ٦٦٢-٦٦٤، وتفسير الجلالين:١: ٥٣، وأولى ما قيل في آيات التنزيل: لرشيد الخطيب الموصلي:٢: ٣٥٧.

(٢٥) تفسير المنار: ٢: ٣٦٣.

(٢٦) والمراد بسنة التدافع: هو "التدافع بين الحق والباطل أي: بين أصحابهما أمرٌ لا بدَّ منه وحتمي لأنّهما ضدان، والضدان لا يجتمعان، ولأنّ تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الأخر وطرده ودفعه وإزالته، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، فلا يُتصوَّر إذن أن يعيش الحقُّ والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر."، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد:٣٦.

(٢٧) ينظر تفصيل أنواع التعاون ودوافعه: مبادئ علم الاجتماع: د: أحمد رأفت عبد الجواد:٩١-٩٥.

(٢٨) جامع البيان:٥: ٦٤٤.

(٢٩) وفي مسند الإمام أحمد عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا " قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: "أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، تُنْتَزَعُ الْمَهَابَةُ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ، وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ" قَالَ: قُلْنَا: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: "حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ، ٣٧: ٨٢، رقم الحديث:٢٢٣٩٧، إسناده حسن.

(٣٠) تفسير المنار: ٢: ٣٦٣.

(٣١) تفسير المنار: ٢: ٣٦٣.

(٣٢) تفسير المنار: ٢: ٣٦٣-٣٦٤.

(٣٣) تفسير المنار: ٢: ٣٦٤.

(٣٤) تفسير المنار:٢: ٣٦٤-٣٦٥.

(٣٥) والمراد بسنة الابتلاء: هو الاختبار والامتحان للإنسان في الشدّة والرخاء، فمن الابتلاء بالشر قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة:١٥٥] ، ومن الابتلاء بالخير قال تعالى﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[الكهف:٧]، ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد:٦٧-٦٩، قال الراغب: "أصل الفَتْنِ: إدخال الذّهب النار لتظهر جودته من رداءته... وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء، وهما في الشّدّة أظهر معنى وأكثر استعمالا، وقد قال فيهما: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾"، المفردات: ٦٢٣.

(٣٦) قال ابن فارس: كعّ: "أصل صحيح يدلّ على حبس واحتباس، يقال: رجل كعٌّ وكاعٌّ أي: جبان"، معجم المقاييس في اللغة: ٩٠٥.

(٣٧) ينظر: المحرر الوجيز: لابن عطية:٢٢١، وتفسير المنار: ٢: ٣٧٦، وأولى ما قيل:٣٦٠،

(٣٨) تفسير المنار:٢: ٣٧٦.

(٣٩) تفسير المنار:٢: ٣٧٧.

(٤٠) تفسير المنار:٢: ٣٧٨-٣٧٩.

(٤١) وقد أُفردت مؤلفات في علم الاجتماع لدراسة خصائص القائد وسماته، وذكر فيها آراء علماء الاجتماع من غربيين وعرب، وهي لا تخرج عمّا ذكر في أعلاه من حيث الإجمال، ينظر ذلك بتفصيل في: القيادة دراسة في علم الاجتماع النفسي والإداري والتنظيمي: د: حسين عبد الحميد أحمد رشوان: ٤٣-٦٤.

(٤٢) تفسير المنار:٢: ٣٨٠.

(٤٣) تفسير المنار:٢: ٣٨٩.

(٤٤) في ظلال القرآن:٦: ٣٢٨٩.

(٤٥) قرأ نافع، وأبو جعفر، ويعقوب: دِفَاع، على أنّها مصدر دافع، نحو: قاتل قتالًا، والمفاعلة قد تأتي من واحد، كـ(عاقبت اللّص)، وقرأ الباقون: دَفْع، على أنّها مصدر دفع يدفع، ينظر: الكشف: لمكي:١: ٣٥١، والنشر:٢: ١٧٣، والمغني:١: ٢٦٦.

(٤٦) تفسير المنار:٢: ٣٨٩.

(٤٧) فرّقت بين الأصل والركن: إذ الأصل هو الأساس الذي يُبنى عليه الأركان التي يقوم بها الشيء، فإذا وجد الأصل شُرِع في بناء الأركان وقام الشيء، وإذا فُقِد الأساس فلا فائدة لبناء الأركان فإن مصيرها السقوط لا محالة.